

دور اليهود في العلاقات الجزائرية الفرنسية

في أواخر عهد الدايات

The role of Jews in Algerian-french

Late in the Day of the Diyat

أ.د محمد دادة، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

جامعة طاهري محمد بشار، mohammed.maksouda@univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2023/12/31

تاريخ القبول: 2023 /11/15

تاريخ الاستلام: 2023 /11/02

ملخص: ساعدت طبيعة المجتمع الجزائري خلال القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر على إتاحة المجال أمام يهود الجزائر لكي يمارسوا نشاطهم الاقتصادي في حرية واسعة حتى استطاع بعضهم أن يسيطروا على جوانب مهمة من الاقتصاد الجزائري خلال هذه الفترة، وأكثر من ذلك، فقد أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط باحتكارهم التجارة الخارجية في هذا الحوض، وذلك نظرا لارتفاع مستوى الخبرة بينهم وتشجيع السلطات الحاكمة لهم خصوصا في سائر المدن التجارية المهمة في البلاد الأوربية، كما أن احتلالهم بالأوروبيين فتح أمامهم فرصا للعمل التجاري، وبذلك تدعم مركزهم في التجارة الدولية تحت حماية الدايات والقناصل الأوروبيين.

كلمات مفتاحية: اليهود، العلاقات، الجزائر، فرنسا، الدايات.

Abstract: The nature of Algerian society during the eighteenth century and the first quarter of the nineteenth century helped to allow the Jews of Algeria to practice their economic activity in wide freedom, to the point that some of them were able to control important aspects of the Algerian economy during this period, and more than that, they became masters of the sea. The Mediterranean monopolized foreign trade in this basin, due to the high level of experience among them and the encouragement of the ruling authorities for them, especially in other important commercial cities in European countries. Their mixing with Europeans opened opportunities for commercial work for them, thus strengthening their position in international trade under the protection of European dynasties and consuls.

Keywords: Jews, relations, Algeria, France, dynasties.

مقدمة:

ساعدت طبيعة المجتمع الجزائري خلال القرن الثامن عشر والرابع الأول من القرن التاسع عشر على إتاحة المجال أمام يهود الجزائر لكي يمارسوا نشاطهم الاقتصادي في حرية واسعة حتى استطاع بعضهم أن يسيطروا على جوانب مهمة من الاقتصاد الجزائري

خلال هذه الفترة، وأكثر من ذلك، فقد أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط باحتكارهم التجارة الخارجية في هذا الحوض، وذلك نظرا لارتفاع مستوى الخبرة بينهم وتشجيع السلطات الحاكمة لهم خصوصا في سائر المدن التجارية المهمة في البلاد الأوربية، كما أن اختلاطهم بالأوروبيين فتح أمامهم فرصا للعمل التجاري، وبذلك تدعم مركزهم في التجارة الدولية تحت حماية الدايات والقناصل الأوروبيين.

وكان هذا الدور اليهودي في الشؤون الجزائرية أمرا خطيرا بالنظر إلى النتائج التي ترتبت عليه، سواء على المستوى السياسي الرسمي أو على المستوى الشعبي. وقد تراكمت هذه النتائج وازداد تأثيرها خصوصا منذ نهاية القرن الثامن عشر، وهي الفترة التي عرفت تحولات جذرية على مستوى البحر الأبيض المتوسط، وكثر خلالها تنافس الأوروبيين للوصول إلى تحقيق مصالح اقتصادية في الجزائر، وهذا ما جعل الدور اليهودي يأخذ أبعادا خطيرة، ولا سيما في المجال السياسي الخارجي أو في الشؤون الدبلوماسية الجزائرية، وهو ما سنعالجه في هذا الموضوع.

كانت المؤسسات التجارية الفرنسية خلال هذه الفترة تعيش في وضع سيء في الجزائر بسبب مزاحمة الهيئات التجارية الأجنبية وبالخصوص شركة بكري وبوشناق، زد على ذلك تكاثر المشاكل، ولا سيما مما طلة الحكومة الفرنسية في إرسال الأموال الضرورية للقيام بعملياتها التجارية، لأن خزانة الدولة لم تعد قادرة على تحمل النفقات، وذلك ما جعلها تستعين بالشركة اليهودية من أجل تمويل سكانها بالحبوب، وقبلت الحكومة الفرنسية أن تتعامل مع الشركة اليهودية على الرغم من السعر الباهظ الذي كانت تدفعه للقمح الذي

تشتريه منها. فبينما كانت تشتري حمولة القمح من الوكالة الإفريقية بسعر 42 فرنك للحمولة (نقدا) راحت تدفع لشركة بكري وبوشناق 120 فرنك للحمولة مع تأجيل التسديد¹.

وكان من الطبيعي والحالة هذه، أن تتأثر الحكومة الفرنسية بهذه المعاملات حيث سيحمل هذا التأجيل فوائد سنوية كبيرة. وهكذا نجد أنه لم تكد تحل سنة 1795، حتى كانت الحكومة الفرنسية مدينة للشركة اليهودية بمبلغ مليونين من الفرنكات².

وكانت العلاقات بين الشركة اليهودية والحكومة الفرنسية قد بدأت منذ عام 1793، عندما طلبت منها فرنسا أن تزودها بالحبوب لمدة خمس سنوات متتالية، وكانت فرنسا في ذلك الحين تعاني مجاعة هددت على وجه الخصوص المناطق الساحلية وكعادة اليهود، فإن الشركة اليهودية استغلت هذه الظروف لتفرض أسعارها الخيالية على الحبوب. ولكن قبل هذه الفترة، كان اليهود قد دعموا نفوذهم في الجزائر، وتوغلوا في الشؤون السياسية، لا سيما بعدما تولى الداوي حسن الحكم في الجزائر في 13 يوليو 1791.

وعندما قامت الثورة الفرنسية، تعرضت فرنسا خلال هذه الفترة لأزمات حادة سياسية واقتصادية، وبالإضافة إلى أن معظم دول أوروبا كانت في حرب معها. وقد استغلت الحكومة البريطانية هذه المصاعب الفرنسية، وحاولت الضغط على الداوي للحيلولة دون وصول شحنات القمح إلى فرنسا، بقصد القضاء على الثورة وتجويع الشعب الفرنسي، ولكن

¹ – ESQUER (G): les commencements d'un empire, la prise d'Alger 1830, Paris, Larousse. 1929, P22.

² – Ibid, P23.

الداي حسن رفض الطلب البريطاني وقد تدخل القنصل البريطاني مرة ثانية للغاية نفسها، فكانت نتيجة هذا المسعى مثل سابقه³.

وكان القنصل الفرنسي فاليري (VALLIERE) قد قام بدور كبير في كسب ثقة الداوي ومودته فحصل منه على إذن بشحن كميات كبيرة من الحبوب واللحوم المملحة والجلود وبعض المواد اللازمة لتغذية السكان في مقاطعات الوسط الفرنسي وتموين الجيش⁴.

والملاحظ أن فرنسا في هذه الفترة كانت تريد أن تحافظ على علاقتها مع الإيالة من أجل تأمين تموينها بالحبوب اللازمة لبلادها وجيشها⁵.

وعندما لم تتجح خطة الحكومة البريطانية في تدخلها لدى الداوي، لجأ قنصلها إلى الشركة اليهودية وأقنع اليهوديين بكري وبوشناق بأن الدول الأوروبية المتحالفة ضد فرنسا سوف تنتصر حتماً، وأنهما بتموينهما لفرنسا سيعرضان مصالحهما لخطر محقق. ومن جهة أخرى، حاول القنصل إغراءهم بفتح جبل طارق لتجارتهم. وقد كان لهذه الحجج في المرحلة الأولى أثر في نفوس اليهود الذين قللوا من نشاطهم في اتجاه فرنسا، إلا أن الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الفرنسية ضد "الحلفاء" لم تلبث أن فتحت أعينهم وكذلك راحوا يقومون بدور

³ – GRAMMONT (H. De): Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)– Paris, E-leroux, 1887, P348

⁴ – Ibid

⁵ – كتب الحكومة لفرنسية إلى سلطات الإيالة مجموعة من الرسائل خلال هذه الفترة تحرص فيها إدارة حكام البلاد على مصالحها، أنظر:

PLANTET(E): Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), Tunis, Bouslama, 1981, T2, P451 et suis.

متقلب بين الدول الأوروبية، فيميلون إلى أحد المعسكرين حيناً، وإلى المعسكر الآخر حيناً، وفقاً لاتجاه رياح النجاح والفشل⁶.

وهكذا نجد الشركة اليهودية تسارع إلى المطالبة بمنحها امتياز لتموين فرنسا بالقمح، حينما سمعت أن القوات الفرنسية قامت بهجوم ضد أعدائها، فحصلت على هذا الامتياز بدون صعوبة. وهذه التطورات ستثير قلق الحكومة البريطانية، التي بعثت بتعليمات إلى قنصلها في الجزائر ليسعى إلى عقد معاهدة صلح بين الإيالة والبرتغال مهما كان الثمن قصد فتح مضيق جبل طارق في وجه السفن الجزائرية التي تنقل الحبوب إلى الموانئ البريطانية الواقعة على بحر المانش كما كلف بأن يعمل لتمكين البحرية الجزائرية من التعرض للسفن الأمريكية التي تنقل البضائع إلى شواطئ بروتانيا الفرنسية.

وقد بذل القنصل "شارل لوجي"، جهوداً كبيرة لهذه الغاية وأوشك على النجاح في مهمته، ولكن "فالير" قنصل فرنسا، قام بمناورة بارعة انتهت بإحباط مساعي قنصل إنكلترا، حيث قام بنفسه بوساطة، عن طريق جوزيف بكري، كللت بالنجاح بعقد معاهدة بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية عام 1795، على الرغم من معارضة الحلفاء⁷.

ولنعد الآن إلى علاقات الداوي بفرنسا التي سيجيبها بعض الاضطراب ابتداء من سنة 1793 بسبب السيد ما يفرن (MEIFRUN)، صهر القنصل الفرنسي وصديق الداوي بابا حسن⁸. وقد استغل اليهوديان بكري وبوشناق هذه الظروف الصعبة بين البلدين، وعجز

⁶ – GRAMMONT (H. De): Op-cit, P 351

⁷ – Ibid

⁸ – اتهمت السلطات الفرنسية السيد "ما" يفرن بالخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام لأنه شغل وظيفة بلدية في طولون خلال الاحتلال الإنجليزي، فهاجر إلى إسبانيا ثم إلى الجزائر، حيث بسط الداوي عليه حماية لدى الحكومة الفرنسية للعفو عنه...

الوكالة الإفريقية عن القيام بمهامها في استيراد الحبوب من الجزائر بأسعار رخيصة، بسبب النقص المالي التي كانت تعانيه خزائن الدولة الفرنسية ومزاحمة اليهود المتزايدة، زد على ذلك أن الداي الذي أظهر عزمه في بداية الأمر على مساعدة الفرنسيين، والتضحية بجميع المنافع الخاصة في سبيل المحافظة على صداقتهم، أصبح ينظر إليهم بعين الازدراء والحقده لأن الحكومة الفرنسية رفضت الاستجابة لطلبه الخاص بالسيد "ما يفرن" المذكور ولذلك لم يحرك ساكنا ليرغم الباي على تغيير تصرفاته إزاء ممثلي الوكالة الفرنسية، بل صار يشجع السلطات المحلية في الشرق الجزائري على تمكين اليهود من احتكار التجارة الخارجية، ولا سيما تصدير الحبوب ولم تعد الحكومة الفرنسية تفيد من الإيالة إلا بواسطة الشركة اليهودية التي قدمت خدماتها غالبا.

ولما عين جان "بون سانت" أندري "قنصلا لفرنسا في 07 نيسان 1796م وجد أمامه مهمة شاقة لاستعادة العلاقات إلى مجراها الطبيعي. على أن الانتصارات التي أحرزها نابليون الأول التي استغلها هذا القنصل وضخمها، أعادت شيئا من الاعتبار إلى فرنسا في نظر السلطات العثمانية، مما دفع هذه السلطات إلى أن تسمح من جديد بتصدير الحبوب إلى فرنسا، واختارت الحكومة الفرنسية، أثر ذلك، التعامل مع شركة بكري وبوشناق عوضا عن الوكالة الإفريقية الحكومية التي كانت تتخبط في كثير من المشاكل.

والواقع أن السلطات الفرنسية حاولت كسر احتكار الشركة اليهودية، غير أنها لم تنجح في مساعيها بسبب مناورات اليهود، وكذلك بسبب المشاكل التي اعترضتها والتي تتمثل في الخوف من رد فعل المهاجرين المجتمعين في إيطاليا خاصة. وبالفعل، فإن هؤلاء لم يترددوا لحظة واحدة في القيام بما من شأنه أن يعرقل مجهودات الجمهوريين، كالاستيلاء على السفن، ومنع المؤن من الوصول إلى الفرنسيين وهناك خطر آخر يمثله الإنكليز

والإسبانيين الذين كانوا يحتجزون جميع السفن التي تتوجه إلى الموانئ الفرنسية، وذلك في نطاق الحصار الذي ابتدأ سنة 1792.

ولكن الأخطر من كل هذا، هو أن علاقات فرنسا بالشركة اليهودية سيعتريها بعض الفتور فترة قصيرة في أواخر القرن الثامن عشر، حينما سمعت الحكومة الفرنسية بأن الشركة اليهودية تزود الحامية الإنكليزية في مضيق جبل طارق، التي تشكل خطرا كبيرا بالنسبة لنفوذها في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد تخوفت الحكومة الفرنسية من توثيق الشركة اليهودية علاقاتها بانكلترا، عدو فرنسا التقليدي. غير أن الحكومة الفرنسية التي كانت تريد أن تفوز بخدمات الشركة اليهودية خالسا لها عمدت إلى تجميد ديونها.

وفي 26 نيسان 1797 كتب "دولاكروا" وزير خارجية فرنسا إلى زميله وزير المالية رسالة ينصح فيها باتخاذ إجراء التجميد جاء فيها قوله : "و باحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لليهوديين بهذه الطريقة سنمنعهم من التحول عن مصالحنا ونضطرهم إلى التزام تحفظ أكبر في طرق تعاملهم مع الإنكليز الذين لا يخدمونهم بهذه الحماسة إلا لأن وجودهم في شمال إفريقيا يثير في نفوسهما الأمل في تحقيق أرباح أخرى⁹.

ولكنه عندما خرج دولاكروا " من وزارة الخارجية وحل محله "تاليران في تموز 1797 ، تنفس اليهوديان بكري وبوشناق الصعداء وسارعا إلى ربط علاقتهما بالشيطان الأعرج فقد وجدا أنهما الآن أمام خصم إذا لم يكن يفهم قضيتهما، فهو على الأقل، يقبل العملة التي يتعاملان بها ويفهم لغتهما الوحيدة المساومة وشراء النفوذ والرشوة.

⁹ – ESQUER (G): Op-cit, P24.

ومن الطبيعي أن يثور الرأي العام الفرنسي ضد تأثير اليهود الجزائريين في فرنسا الذين وجدوا في نظامها وقتئذ فرصة كبيرة لاكتساب النفوذ الديبلوماسي، غير أن تدخل الوزير الفرنسي "تاليران" الذي كسبه اليهود، جعل الحكومة الفرنسية تتراجع في كثير من الإجراءات التي كانت تعتزم اتخاذها ضدهم¹⁰.

وعلى هذا الأساس ازداد مركز اليهود الذين أدركوا منذ البداية كي يحافظوا على مصالحهم التجارية أن يرتبطوا ببعض الشخصيات ذات التأثير الكبير في الحكومة الفرنسية، في الوقت الذي تدعم نفوذهم في الإيالة. وهكذا نلاحظ بعد مدة قصيرة أن نشاط الشركة اليهودية تضاعف، وامتد تحت رعاية السيد "تاليران" الذي أصبح محاميا بليغ الحجة وحليفا قويا لليهود، مما جعل يعقوب بكري يكتب إلى أخيه إبراهيم بكري قائلاً: "إذا لم يكن الشيطان الأعرج في يدي، فأنا لن اعتمد على شيء في الدنيا بعد الآن....."¹¹.

فمن الواضح أن "تاليران" في ذلك الحين، كان يدرك جيدا النفوذ الذي وصل إليه اليهود، فكان عليه أن يأخذ في الاعتبار مجمل العلاقات الجزائرية الفرنسية، التي كان اليهوديان بكري وبوشناق مفتاحا لها. وهكذا فالمشكلة بالنسبة إلى "تاليران"، هي كيف يحافظ على استمرار تمويل فرنسا بالحبوب ويضمن عدم تحول "عواطف" اليهود، وبالتالي، الداي إلى إنكلترا التي كانت تنوي محاصرة شواطئ فرنسا لعزلها اقتصاديا.

¹⁰ - سعد الله أبو القاسم: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 16.

¹¹ - BLOCH (I): Inscriptions Tumulaires des anciens cimetières Israelites d'Alger, Paris, A Durlacher, 1888 P 111

وهكذا فإن الاهتمام بدور بكري وبوشناق واستخدامهما لأغراض دبلوماسية عليا،
تعكسه رسالة وجهها وفواز (DEVOIZE) "، قنصل فرنسا في تونس إلى تاليران في 14
آذار 1799 نقتبس منها الفقرة التالية: وإذا أرادت " حكومة الديركتوار أن تكظم غيضا وتعتد
سلاما موقعا مع الجزائر، فهي لا تحتاج إلا إلى تدخل بكري سريا لهذه الغاية، فإن هؤلاء
اليهود لهم نفوذ قوي على شؤون الإيالة، بفضل ثقة الداى فيهم، هو ووزراؤه الذين يملكون
مصالح في مضارباتهم التجارية¹².

وتقويم قنصل فرنسا في تونس لنفوذ اليهوديين بكري وبوشناق، يتفق مع تقويم قنصل
فرنسا في الجزائر الذي كان في وضع يسمح له بمراقبة نشاط الشركة اليهودية الدبلوماسية
عن كثب، ذلك التقويم الذي تعكسه رسالته الأنفة الذكر بوضوح وهذا التقويم، على كل حال
يقوم على أساس من الوقائع التاريخية لا يمكن إنكارها. ولما انقطعت العلاقات الدبلوماسية
بين الجزائر وفرنسا سنة 1798، قامت سلطات الجزائر باعتقال الرعايا الفرنسيين من بينهم
قنصل فرنسا وموظفي القنصلية بذل اليهوديان بكري وبوشناق المستحيل لحمل الداى على
تحسين معاملة المعتقلين الفرنسيين، وصون كرامتهم ، وأخيرا إطلاق سراحهم¹³.

عندما توفي الداى حسن في 14 آيار 1798م، أعلن دايا في مكانه مصطفى ابن
شقيق الداى الراحل. وقد كان مصطفى في وقت من الأوقات يشتغل فحاما، فلم يكن له أي
حظ من التعليم، وذلك إلى جانب ما عرف عنه من سرعة الغضب وقلة الشجاعة. ولكنه في
مقابل ذلك، كان يتمتع بميزة كبيرة، وهي الخطوة عند بوشناق الذي كان له الفضل الأول في

¹² – ESQUER (G): Op-cit, P 21.

¹³ – BLOCH (1). Op-cit, P 69

تعيينه في هذا المنصب الخطير، الذي حكم في مكانه خلال فترة توليه الحكم¹⁴. حقا أن اليهودي ليطبق حرفيا الحكمة الإنكليزية القائلة " إن الأفضل من أن تكون ملكا هو أن تكون صانعا للملوك".

وفي 16 تشرين الأول، وصل فرمان الأول من السلطان سليم الثالث، مصحوبا بالقفطان والسيف التقليدي، حيث أوصى مصطفى على أن يعلن الحرب على فرنسا على إثر حملة نابليون على مصر سنة 1798م، فأصدرت أمرا إلى الداوي بناء على تفاهم مع الإنكليز بأن يقوم بإعلان الحرب على فرنسا مع تركيا. ولكن الداوي مصطفى تردد كثيرا تحت ضغط بكري وبوشناق اللذين تتعرض مصالحهما التجارية في فرنسا للخطر، في تنفيذ هذا الأمر الذي سيؤكد السلطان من جديد في 22 تشرين الثاني.

وفي هذه اللحظة استغلت الشركة اليهودية هذه الفرصة لتفرض شروطها في حال تعاملها مع الحكومة الفرنسية لتموين الجيش الفرنسي المتجه نحو مصر، وهذا ما تستنتجه من تقرير سري للسيد علي المقيم بباريس بعثه إلى حكومته في اسطنبول يوضح فيه الدور الذي قام به اليهوديان بكري وبوشناق في هذه العملية، تقتبس الفقرة التالية: "ومن أجل هذا استدعت ولاء الأمور الفرنسية هذين اليهوديين لاستمالتهما بالوعود العلية متطرقين إلى الصداقة القائمة بين فرنسا والجزائر ومؤكدين لليهودي التاجر الجزائري بدفع جميع ما يطلبه من الحكومة الفرنسية، ولما عرضوا على اليهودي التاجر بعد كل تلك المراسيم التقليدية مهمة نقل الذخيرة من نواحي تونس والجزائر إلى مالطة، رأى اليهودي في هذا العرض الفرصة الذهبية وخاصة بعد أن أصبح بائسا في الحصول على نفوذه حتى ولو في المستقبل البعيد (...). اثبت التاجر اليهودي يهوديته ومهارته الفائقة في صنعة استرداد وأخذ المبلغ

¹⁴ – GRAMMONT (H. De): Op-cit, P355.

الذي قد اشترطه في البداية بعملية نقل الذخيرة من نواحي تونس والجزائر إلى جزيرة مالطة¹⁵.

وكان موقف الداوي قبل ذلك غير واضح، لذلك وجه السلطان العثماني سفيرا فوق العادة إلى مصطفى داي في 19 كانون الأول، كانت مهمة الأساسية أن يعبر للداوي عن نيته وبيّاشر في تنفيذ ما أمر به السلطان. وبعد مناقشة صاحبة انصاع للأمر، وأعلن الحرب على فرنسا كما جاء في التقرير¹⁶.

وعلى إثر ذلك، سجن الداوي مالتيدو (MALTEDO)، نائب القنصل الفرنسي وموظفي القنصلية، وعدد من الرعايا الفرنسيين، فكان أسرهم خفيفا وعمولوا معاملة حسنة وأطلق سراحهم بعد مغادرة السفير العثماني الجزائر، وقد عارض اليهوديان بكري وبوشناق إلى أقصى حد هذه الأمور التي حصلت، ولم يكفيا طوال اعتقال رعايا فرنسا عن تحسين معاملتهم لدى الداوي¹⁷.

ومما لا شك فيه أن مساعي الشركة اليهودية لم تكن في صالح الفرنسيين، بقدر ما كانت تخدم مصالح هذه الشركة التي كانت تريد أن تحافظ على استمرار العلاقات الطيبة بين الإيالة وفرنسا لأن إعلان الحرب إجراء معاكس للعلاقات التقليدية بين الشركة اليهودية وفرنسا، لاسيما وأن هذا الإجراء جاء في وقت غير مناسب، وهو الوقت الذي شرعت فيه الشركة اليهودية في توسيع عملياتها التجارية عبر البحر الأبيض المتوسط.

¹⁵ - محفوظات المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر العاصمة (الأرشيف العثماني)، "تقرير سري حالة. الفرنسيين بمصر " خط همايون - عدد 2/5852 تاريخ 1214هـ - المغرب " فكري طونا".

¹⁶ - المصدر نفسه.

¹⁷ - GRAMMONT (H. De): Op-cit, P356.

غير أن الإجراء الذي اتخذته الداوي مصطفى في إعلان الحرب على فرنسا إجراء مشحون بالتهديد ولا يبعث على الارتياح إلى الشركة اليهودية التي كانت مصالحها مرتبطة بمصالح الداوي، الذي خضع بعد كثير من التلكؤ والمراوغة للأمر. ولكن الداوي لا يصدر هذا القرار بإعلان حالة الحرب على فرنسا في 19 كانون الأول، قبل أن يكتب إلى تاليران رسالة يرجوه فيها أن يتلطف ويسبغ رعايته على شركة بكري وبوشناق¹⁸.

غير أن عجز اليهود عن منع إعلان الحرب، سوف لا يحول دون عملهم لتخفيف من آثار هذا الإجراء على مصالحهم بقدر الإمكان خصوصا وأن نائب القنصل الفرنسي "مالتيديو" قد عرض ما حدث له وأصحابه في الجزائر من خلال الرسائل التي كتبها إلى حكومته، وقد تضمنت بدون شك الخدمات الجليلة التي قدمها اليهوديان بكري وبوشناق لنائب القنصل والرعايا الفرنسيين أثناء اعتقالهم¹⁹.

وتحت تأثير اليهود، كتب الداوي مصطفى في 13 نيسان 1801 إلى نابليون بونابرت رسالة سرية يعتذر له فيها عن إجراء الحرب التي اضطر إلى إعلانها، بل وليحثه على جمع أسطول لتدمير الأسطول العثماني²⁰.

ورد نابليون الأول على الداوي في 24 تشرين الثاني 1801، حينما أحل السلام برسالة جاء فيها قوله " لقد أرغمتك أسباب سياسة عليا، ولكن الماضي مضى وانقضى"²¹.

¹⁸ - العربي (اسماعيل): "دور اليهود في الدبلوماسية الجزائرية في أواخر عهد الدايات"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 12/1974 كلية الآداب، الجزائر، ص 54.

¹⁹ - GRAMMONT (H. De): Op-Cit, P356.

²⁰ - PLANTET (E): Op-cit, T2, P494.

²¹ - Ibid, P 495.

والملاحظ أن استمرار العلاقات الطيبة بين الفريقين سيخدم بدون شك الشركة اليهودية التي أصبحت مصالحها مهددة، وبالتالي، فإن هذه التسوية ستعيد لها ما فقدته، ولاسيما أن الحكومة الفرنسية اعترفت لها بخدماتها الكبيرة في العناية برعاياها وبتقديم بعض المعلومات الدقيقة التي تمس الشؤون السياسية والاقتصادية إلى فرنسا مباشرة، أو بواسطة قناصل إسبانيا والسويد والدنمارك وهولندا الذين كانوا على علاقات متينة مع أفراد الشركة اليهودية²².

ومع ذلك، فإن هذه المعاهدة التي نظرت إليها الشركة اليهودية لاستئناف نشاطها السياسي والتجاري لم تدم طويلا، وذلك بتدخل إنجلترا لدى الحكومة العثمانية في اسطنبول التي أصدرت أوامرها بإعلان الحرب من جديد على فرنسا، وقد أمتثل الداي واتخذ هذا الإجراء في 25 كانون الثاني 1801. غير أن الداي في هذه المرة لم يعتقل قنصل فرنسا والرعايا الفرنسيين، بل سمح لهم بمغادرة البلاد دون أن يمسهم أي أذى، بعد أن استقبل "دوبوا تانفيل"، قنصل فرنسا في قصره وأعرب له عن مشاعره الخالصة وترك له الوقت الكافي ليغادر مع مواطنيه الجزائريين²³.

وخلال هذه الفترة من اضطراب العلاقات الجزائرية الفرنسية، وغياب القنصل "دوبوا تانفيل" عن الجزائر، كان بوشناق يرأسه ويطلعه على جميع التي كانت تجري في الإيالة، بحيث عندما قدم هذا القنصل إلى الجزائر من جديد الفرنسي وصلته لاستئناف عمله في

²² - العربي (إسماعيل): المقال السابق، ص 54.

²³ - PLANTET (E): Op-cit, T2 P 492, Note 1.

القنصلية في تشرين الثاني 1802 ، لم يجد صعوبة إطلاقا في مواصلة مهامه، وذلك لأن أكثر الأمور أهمية التي تخص شؤون الإيالة كانت قد من طرف ذلك اليهودي²⁴ .

وفي 18 تشرين الثاني، عقدت معاهدة صلح جديدة بين الإيالة وفرنسا، ولكن العلاقات سرعان ما تعكرت بعد أيام قليلة. وهذا الأمر سيقلق الشركة اليهودية التي كانت تسعى دوما لتحافظ على السلام بين البلدين وذلك خوفا من ديونها المستحقة على الحكومة الفرنسية. ومن المؤكد أن البنود بذلوا جهودا كبيرة لكي يجنبوا الجزائر الدخول في هذه الحرب العثمانية الفرنسية. ولكن الاعتبارات السياسية كانت أقوى من تدخل الشركة اليهودية التي لم تجد وسيلة سوى اللجوء إلى الحكومة الفرنسية التي اتفقت معها في 10 كانون الأول 1800 ، بناء على تدخل (تاليران)، بتموين القوات الفرنسية المرابطة على ضفاف نهر الراين²⁵. وفي الوقت نفسه، أصبحت الشركة اليهودية الممون الرئيسي لقوات الاحتلال الفرنسية في مصر التي حل "مونو" على رأسها محل "كليبر" في 23 كانون الأول 1800²⁶.

وقد نجح تاليران بالفعل في إقناع زملائه الوزراء بتحسين رأيهم في نزاهة العمليات التي كانت تقوم بها الشركة اليهودية، وبتالي في شرعية ديونها التي كانت قبل ذلك مشكوكا فيها، ظهرت فجأة مصانة. وهكذا أصبح القرض قضية تطرح على مستوى الحكومتين، ومن جهة أخرى أخذ تاليران لنفسه موقف الدفاع عن هذه الشركة اليهودية، وذكر بالخدمات الجليلة التي قدمتها هذه الشركة للجيش الفرنسي، وأوصي وزير المالية أن لا ينبغي له أن

²⁴ – GRAMMONT (H. De): Op-cit, P357.

²⁵ – EISENBETH (M): les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516-1830). Revue Africaine 1952, PP375-376.

²⁶ –ESQUER (G). Op-cit, P26.

يعد هذه القضية مسألة شخصية، وإنما مشكلة حكومية ناشئة بين دولتين، ولكي يدعم تاليران موقفة طلب إلى بوشناق أن يعمل على أن يكتب الداوي إلى بونابرت رسالة يقول فيها إن المبالغ التي يطلب بها بكري وبوشناق هي له وأن يرجوه تسهيل الدفع²⁷.

ومرة أخرى نجد الداوي يستجيب لليهوديين، وكتب في 12 أغسطس 1802 رسالة إلى نابليون بونابرت يطلب إليه أن يعطي الأوامر لإنهاء قضايا بكري وبوشناق اللذين تكبدا خسائر نتيجة مطالبتها بالديون ولهذا أرجو منكم تسوية هذه القضية كما وعد به قنصلكم دويوا تانفيل من قبلكم....²⁸.

وإثر تماطل حكومة باريس في دفع الديوان، حاول الداوي أن يضغط عليها، وذلك بسحب الامتياز الذي منح للمؤسسات الفرنسية للعمل على شواطئ الجزائر الشرقية، ومنح هذا الامتياز لمنشآت إنكليزية بناء على تفاهم خاص تم بين القنصل الإنكليزي وبين بكري وبوشناق (1807) اللذين أقنعا الداوي الحاج أحمد باللجوء إلى هذا الإجراء الذي فسره نابليون الأول بأنه تحول في سياسة الجزائر التقليدية وانحراف إلى صف إنجلترا إلى الأمر الذي أثار غضبه إلى وضع مشروع بتوجيه بعثة لجمع المعلومات عن الجزائر. وهذا الموقف سيكون له تأثير كبير على ارتخاء الداوي الذي سيقابله بكثير من الخضوع والتذلل. وعلى أثر ذلك، قرر الداوي إعادة الامتيازات إلى الشركة الفرنسية.

ومما لاشك أن الداوي لاحظ كل هذه التطورات، ولكنه وجد نفسه في مأزق من حيث أن أغلب معاملات الدولة مع الخارج كانت بيد اليهود وجميع موارد البلاد واقتصادياتها هي

²⁷ - فارس (محمد خير): تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مطابع ألف باء - الأديب دمشق، 1969، ص 149.

²⁸ - PLANTET (E): Op-cit, T2, P507.

مرتبطة بهم، يضاف إلى ذلك، خبثهم وسوء نياتهم جعلت الداي يتورط معهم في قضايا سياسية خطيرة دون أن يعرف الداي أن مساعيه ستطوح بعرشه وستجلب على الجزائر ويلات الاستعمار.

وقد جرت هذه التطورات الأخيرة في عهد الداي حسين الذي تولى الحكم سنة 1818 خلف للداي علي، خوجة وعلى ما قيل، فإنه كان ذكيا ومستبدا²⁹، وقد ورث قضية الدين الذي على فرنسا لرعاياه اليهود وكان الداي يتوقع أن تلتزم الحكومة الفرنسية بدفع هذا الدين، ولكنها لم تستجب لطلبه واكتفت بإبلاغ قنصلها "دوفال" أن يقوم بإعلامه أن سبب التأخير يعود إلى إجراءات المحاكم.

ومهما يكن من أمر، فإن نفوذ اليهود السياسي سرعان ما تبلور في فرنسا وبلغ درجة معتبرة، لاسيما بعد أن كسبوا السلطان الفرنسية التي كانت إلى جانبهم. ولكن هذه العلاقات غير المتوازنة بين شركة من التجار وحكومة دولة كبيرة، كانت تتطوي على أخطر حقيقة استهان بها الدايات في مختلف العهود، حتى بعد مشروع نابليون بونابارت وبدء استعداده لغزو الجزائر. وقد حاول الدايات تلافي هذه الأخطار بتقديم ترصيات إلى فرنسا، تحت ضغط اليهود، بلغت حدا يمس بالشرف. وكذلك دخلوا في سلسلة طويلة من المراسلات تدل على قلة التماسك والخيانة، مع عدو أبدي نواياه لاحتلال الجزائر، فهذا الموقف المتراخي هو الذي كشف للعدو عن عورات الجزائر وعن ضعفها السياسي في أواخر عهد الدايات فكيف يخشى نابليون بونابرت، أو حتى خلفاؤه، قوة نظام قطع نفسه عن التيار السياسي الدولي الذي تمثله الدولة العثمانية في اسطنبول وسلم مقاليد الاقتصاد والسياسة لشركة من

²⁹ – Ibid.

المرابيين اليهود الذين استغلوا نفوذهم السياسي والدبلوماسي لخدمة مصالحهم غير مبالين بها
يمكن أن ينجر عن ذلك من خسارة الجزائر.

المصادر والمراجع:

1. سعد الله أبو القاسم: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
2. العربي اسماعيل: "دور اليهود في الدبلوماسية الجزائرية في أواخر عهد الدايات"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 1974/12 كلية الآداب، الجزائر.
3. فارس محمد خير: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مطابع ألف باء - الأديب دمشق، 1969.
4. محفوظات المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر العاصمة (الأرشيف العثماني)، "تقرير سري حالة الفرنسيين بمصر" خط همايون - عدد 2/5852 تاريخ 1214 هـ - المغرب "فكري طونا".
5. BLOCH (I): Inscriptions Tumulaires des anciens cimetières Israelites d'Alger, Paris, A Durlacher, 1888
6. EISENBETH (M): les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516-1830). Revue Africaine 1952
7. ESQUER (G): les commencements d'un empire, la prise d'Alger 1830, Paris, Larousse. 1929
8. GRAMMONT (H. De): Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)- Paris, E-leroux, 1887
9. PLANTET(E): Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), Tunis, Bouslama, 1981, T2